

## الرفيق ربيع خليل الذي غادر الحياة وهو في الصين

لا أذكر أنني التقيت ربيع خليل قبل صدور كتابه الأول "سفر الضجر"، لكنني كنت أعرفه. على أن اللقاء الأكيد الثابت كان في الكتاب ذاته. ولم أكن أعرف قبل قراءة الكتاب الذي أرسله إليّ أنّه استعار اسم "ربيع" بديلاً من اسمه الحقيقي ليظل به على عالم الأدب والفكر. وقد أنستُ إلى هذا الاختيار. لكنني عندما قرأت الكتاب شعرت بحيرة، وتولّدت عندي أسئلة كثيرة. وحين عرفت تفاصيل لم أكن أعرفها عن حياة ربيع، بعد قراءتي كتابه المذكور، بعثتُ إليه برسالة شفوية مضمونها، كما أذكر، يتمحور حول مسألة أساسية هي أنّ الحياة جميلة وأنها تستحقّ منّا أن نحياها بكل جوارحنا وكل أحلامنا، حتى وإن امتلأت طريقنا فيها وإليها بكل أنواع الصعوبات والخيبات والهزائم. ولم أتلقَ منه جواباً. ولم ألتق به بعد ذلك. وحين فاجأني النبأ الحزين لم أكن أعرف أنّه كان قد ذهب إلى الصين. فتساءلت بيني وبين نفسي: لماذا ذهب ربيع إلى الصين؟ وسرعان ما اكتشفت السر عندما بلغتني تفاصيل تلك الرحلة الفكرية والأدبية والفلسفية والوجدانية. إذ تبين لي أنّه كان يريد اكتشاف الصين الجديدة، اكتشافاً ذاتياً. لم يكن يريد أن يرشده إليها أحد ما أو كتاب ما. إذ كان يريد أن يعرف بنفسه سر هذا العملاق القادم من العصور الغابرة إلى زماننا الحاضر: لكن الصين التي ذهب إلى اكتشافها سبقته هي في اكتشافها له. وهكذا ففي الصين التقى الصراع داخل ربيع بين متناقضات في الصراع مع النهاية. إذ لكل شيء بداية ولكل شيء نهاية. لكن للبداية شروطها وللنهاية شروطها، ولكل منهما ضرورتها، وشروط البدايات عند ربيع مثل شروط النهايات فلسفية، أي جدلية بكل المعاني.

يوم رحيل ربيع أدركت، بوضوح أكبر، معنى وأهمية وخطورة المعاناة التي يعيشها أصحاب الأفكار المرتبطون حتى الالتحام بأفكارهم. أدركت ماذا كان يقصد ربيع حين اختار هذا الاسم ليظل به على عالم الأدب والفكر. كان يريد بالربيع استباق الخيبة بالحلم. لكن الخيبة تغلّبت على الحلم. وهكذا ارتبطت عند ربيع قصة البدايات مع قصة النهايات... وكل البدايات والنهايات لا قرار لها يمكن بلوغه!